التصوف

والاتجاه السلفي في العصر الحديث

تأليف
الدكتور مصطفى حلمي
أستاذ مساعد بدار العلوم جامعة القاهرة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية)

التصـــــــوف
والاتجاه السلفى فى العصر الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب اليه • ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له • ونشهد أن محمدا عبده ورسوله • أرسله بين يدى الساعة بشيرا ونذيرا • وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا • فهدى به من الضلالة • وبصر به من العمى • وأرشد به من الغى • وفتح به أعيننا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا • حيث بلغ الرسالة • وأدى الامانة • ونصح الامة • وجاهد فى الله حق جهاده • وعبد الله تعالى حتى أتاه اليقين من ربه • صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما • وجزاه عنا أفضل ما جزى نبيا عن أمته •

أما بعد ، فان هذا الكتاب يعرض لموضوع (التصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث) •

وبه نختتم بحثنا فى التصوف[1] ، اذ يقابل الدارس فى هذا الحقل تبيانا واختلافا فى آراء الباحثين حول نشأته ومعناه ، ومدى اتصاله أو افتراقه عن الاسلام ، الى تعدد شيوخه وفرقه ، وتباين سماته ومدلولاته، فهناك التصوف (المعتدل) الذى استلهم بعض عناصره من الكتاب والسنة[2]، والتصوف (الفلسفى) المصطبغ بالنظريات الفلسفية ، القائل حينا بوحدة

---

(١) صدر بعون الله تعالى كتابان :
أولهما : الزهاد الاوائل (المحرم ١٤٠٠هـ ــ ديسمبر سنة ١٩٧٩م)
والثانى : ابن تيمية والتصوف (صفر سنة ١٤٠٣هـ ــ ديسمبر ١٩٨٢)
(نشر دار الدعوة بالاسكندرية)
(٢) كالامام الغزالى .
(٣) المقصود مذهب محيى الدين بن عربى ومن سار على نهجه كالتلمسانى

الوجود[٣] وحينا آخر بمذهب الحلول[٤] ، أو المتخذ الاشراق سبيلا للوصول الى شخصية الحكيم المتأله[٥] .

وسنعرض ها هنا أولا للتصوف تعريفا ونشأة وتطورا ، لاعطاء القارىء فكرة واضحة عن ذلك كله ، بحيث يصبح معدا لمعرفة مدى صحة نقد شيوخ السلف للتصوف فى الماضى والحاضر ، ومن ثم تمكنه فى ضوء آرائهم أيضا من التمييز بين ما تطابق أو تنافر مع الاصول الاسلامية كما هى بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وأيضا تصبح بتوفيق الله تعالى عونا له على معرفة العقيدة الاسلامية الفطرية فيحترس من ادران شوائب البدع ، وما أكثرها !

تعريف التصوف ونشأته :

تقابلنا آراء متعددة فى تعريف التصوف ، بعضها يرجع الى الاختلاف فى اشتقاق الاسم ، ومنها ما يرجع الى اختلاف الصوفية فى تعريف يجمعون عليه .

وسنعرض لأهم هذه الآراء مستندين الى المصادر الرئيسية التى عالجت التصوف من كافة جوانبه ، ثم نعرف التصوف من أقوال الصوفية أنفسهم .

ونبدأ المصادر الصوفية عادة بمناقشة لفظ (التصوف) وتحليل مشتقاته وأصله ونشأته وبيان أصل الكلمة ومصدرها .

والى القارىء فكرة عن هذا كله :

---

(٤) واشهرهم الحلاج .
(٥) السهروردى المقتول .

قيل ان اللفظ أطلق على الصوفية اما لصفاء أسرار هذه الطائفة أو أن الصوفى من صفا قلبه ، أو من صفت لله معاملته[٦] أو أنهم فى الصف الاول بين يدى الله عز وجل فى كل وقت بشرط الوفاء[٧] .

وقيل انهم ينتسبون الى قوم فى الجاهلية سموا (صوفه) ، انقطعوا الى الله عز وجل وقطنوا الكعبة ، فمن تشبه بهم فهم صوفية ، وهم المعروفون (بصوفة من أولاد الغوث بن مر بن أخى تميم بن مر)[٨] وقد سمى الغوث بن مرة : صوفة لأنه ما كان يعيش لأمه ولد ، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفه ولتجعله سبيط الكعبة ، ففعلت فقيل له صوفه ولولده من بعده .

ولكن ابن الجوزى يرجح أن الصوفية ينتسبون الى الغوث بن مر الآنف الذكر لشابهتهم اياه فى الانقطاع الى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفية[٩] .

وسماهم أهل الشام (فقراء) لتخليهم عن الاملاك و (جوعية) لانهم لا يتناولون من الطعام الا قدر ما يقيم الصلب للضرورة[١٠] .

ويميل مؤرخو التصوف الى نسبة الصوفية الى أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، اما لاقترابهم من أوصافهم أو لانهم بقية من بقايا أهل الصفة[١١] .

والثابت تاريخيا ان أهل الصفة هم المهاجرون الذين اختصوا بالسكنى

---

(٦) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٥
(٧) الطوسى : اللمع ص ٢٦ تحقيق نيكلسون .
(٨) ابن الجوزى : تلبيس ابليس .
(٩) المصدر السابق ص ١٥٦ .
(١٠) الطوسى : اللمع ص ٢٦ والكلاباذى : التعرف ص ٢٥
(١١) المصدران السابقان ص ٢٧ و ص ٢٥

فى صفة مسجد رسول الله ﷺ مثل أبى هريرة ، وأبى ذر ، وبلال ، وصهيب وسلمان وأمثالهم ، رضى الله عنهم[١٢] .

واختصاصهم بملازمة المسجد — كما يذكر ابن خلدون — لم يكن بسبب الغربة والفقر ، لأن المهاجرين من قريش نزلوا على اخوانهم من أهل المدينة ، وآخى بينهم الرسول ﷺ ، وبقى هؤلاء الغرباء من أهل الصفة الذين آواهم الى نفسه وأسكنهم مسجده وأمر بمواساتهم[١٣] .

ولكن ابن خلدون يعترض على ارجاع تاريخ الصوفية الى هؤلاء المهاجرين لأن قياس النسبة يأباه . وينسج على منواله ابن الجوزى اذ من الخطأ فى رأيه نسبة الصوفى الى أهل الصفة ، لأنه لو كان كذلك لقيل (صفى)[١٤] .

وهناك أسماء أخرى أطلقت عليهم كأسماء (الغرباء) لخروجهم عن أوطانهم و (السياحين) لكثرة أسفارهم و (شكفتيه) نسبة الى الغار والكهف بسبب سياحتهم فى البرارى وايوائهم الكهوف[١٥] غير أن أظهر هذه التسميات وأرجحها ما ينسبها الى لبس الصوف لانه دأب الانبياء والمرسلين عليهم السلام فأضافتهم الى ظاهر اللبسة كان ذلك أسما مجملا

---

(١٢) ابن خلدون : شفاء السائل لتهذيب المسائل ص ١٦ يرجح الاستاذ محمد بن ثابت الطنجى صحة نسبة الكتاب الى ابن خلدون صاحب (المقدمة) ، ولكن الدكتور على عبد الرحمن وافى يرى أن الكتاب لعم والد مؤلف المقدمة .
وعلى أية حال ، فان مضمون الكتاب يعد بمثابة مرجع هام للموقف الناقد لبعض مظاهر التصوف ، لا سيما فى العصور الاخيرة . (ينظر مقدمة الاستاذ الطنجى لمقدمة الكتاب المذكور وكتاب ابن خلدون للدكتور وافى من ص ٢٨٠ الى ص ٨٨ — ط ابريل سنة ١٩٦٢م سلسلة أعلام العرب (٤) .

(١٣) المصدر السابق ص ١٦ .

(١٤) تلبيس ابليس ص ١٥٧ .

(١٥) الكلاباذى : التعرف ص ٢٥ .

عاما ولأن لبس الصوف كان دأب الانبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين[١٦] .

وهذا ما يرجحه ابن تيميـــة مستبعدا باقى التعليلات والتفســيرات السابقة مفندا اياها موضحا الاسباب فى كل حالة . لأنه لو كان نسبه الى الصف المقدم بين يدى الله لقيل صفى ، واذا قيل نسبة الى الصـــفوة من خلق الله لكان الاسم الصحيح (صفوى) واذا كانت النسبة الى صوفه ابن بشير من القبلة المجاورة لمكة منذ الزمن القديم الذين ينسب اليهم النساك فانه قول ضعيف لأنه لو نسب النساك الى هؤلاء لعرف هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم كما لا يرضى صوفى أن يكون مضافا الى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الاسلام[١٧] .

فالاصح اذن عنده هو أن الصوفية نسبوا الى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف فقيل فى أحدهم (صوفى) .

وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الامر به ، لكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال[١٨] .

ومهما كان الرأى فى أصل الكلمة وتاريخ ظهورها ومدلولاتها ، فاننا لا نعرف لها أثرا فى الكتاب أو السنة ، ويثبت لمن يطالع كتب التاريخ أنهـــا ما جاءت فى كلام الصحابة أو التابعين وما عرفت فى خير من القرون ، ومن ثم فهى تعرض البدع المستحدثة .

---

(١٦) الطوسى : اللمع ص ٣١ والكلاباذى بالتعرف ص ٢٥
(١٧) ابن تيمية : رسالة الصوفية والفقراء ص ٨ــ٩
(١٨) رسالة الصوفية والفقراء ص ٢٥

وقد نشأ عن استخدام اللفظ الشبهات الكثيرة واشتدت حوله الخصومات وتكونت فيه المذاهب .

ومن أول الامثلة على التطرف والغلو فى الحديث عن التصوف والصوفية هو القول بأن (لفظ الاسلام لم يعد وحده كافيا فى التعريف بهم والدلالة عليهم)[١٩] .

وكان الاجدر استخدام الكلمات التى عبر بها الاوائل واستمدوها من مصادرها ، كألفاظ (التزكية) (والاحسان) ، والاقتداء بالكيفيات الباطنة التى كانت تلازم رسول الله ﷺ فى حياته كلها والتى يمكن التعبير عنها (بأعمال القلوب) أو اخلاص النوايا ذلك لأن التزكية والاحسان واخلاص النية حقائق شرعية علمية ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة[٢٠] .

متى ظهر الاسم :

أما عن وقت ظهور اسم التصوف والصوفية فقد اختلف الباحثون أيضا فى زمن ظهوره — اذ يرى القشيرى مؤرخ التصوف الشهير — أن لقب الصوفية اشتهر قبل المائتين من الهجرة .

ولكن ابن الجوزى يخالفه ، فيرى أن اسم ولقب (صوفى) لم يعرف قبل سنة مائتين من الهجرة لأن التسمية فى زمن رسول الله ﷺ الى الايمان والاسلام — فيقال مسلم ومؤمن ثم حدث اسم زاهد وعابد هم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة ، واتخذوا فى ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقا تخلقوا بها[٢١] .

---

(١٩) عبد الكريم الخطيب — نشأة التصوف ص ١٨
سلسلة الثقافة الاسلامية العدد ٢٢ ربيع الثانى ١٣٨٠ — اكتوبر ١٩٦٠
(٢٠) النووى — ربانية لا رهبانية ص ١٢
(٢١) ابن الجوزى : تلبيس ابليس ص ١٥٦ .

ويذهب ابن تيمية الى أن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا فى القرون الثلاثة الاولى واتما اشتهر التكلم به بعدها ، ويعرض للاحتمالات حول الزمن الذى ظهر فيه وقيل ان أول ما وصف باسم الصوفى هو جابر بن حيان الكيميائى الشيعى وأبو هاشم وكانا بالكوفة .

أما كلمة (الصوفية) بالجمع فقد ظهرت للمرة الاولى سنة ١٩٩هـ اذ أطلقت فيما يرى المحاسبى والجاحظ ــ على مدرسة تنسكيه شيعية نشأت بالكوفة فى ذلك العهد وكان أخبر زعمائها (عايدك) السبنانى الذى توفى فى بغداد سنة ٢١٠هـ[٢٢] .

وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الائمة والشيوخ كالامام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) وأبى سليمان الدارنى (٢١٥هـ) وغيرهما ــ وقد روى عن سفيان الثورى (١٦١هـ) أنه تكلم به . وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى (١١٠هـ)[٢٣] .

ويرى أن أول ما ظهرت الصوفية فى البصرة وأن أول من بنى دويرة الصوفية أى المكان الذى يقيمون فيه ــ بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وهو من أصحاب الحسن البصرى[٢٤] .

تعريف التصوف :

لم يتفق الصوفية على تعريف واحد للتصوف ، وذلك لاختلاف مواقفهم من التصوف ، لأنهم يرون انه يشتمل على أحوال ومقامات ، ويتضمن أخلاقا ، ويهدف الى سلوك الطريق الموصل الى الله تعالى وفقا للاجتهادات الخاصة التى يتخذها كل منهم فى هذا السبيل ، فالبعض يعرف

---

(٢٢) د. غلان (التصوف المقارن) ص ٣٠ــ٣١

(٢٣) ابن تيمية : الصوفية والفقراء ص ٧

(٢٤) نفس المرجع ص ٩

التصوف ببدايات الطريق ، والآخر يعرفه بالغاية والهدف ، أو ما يصطلحون على تسميته بنهاية الطريق ، ونجد البعض يتكلم بلسان الحال الذى ينفعل به ، أو المقام الذى يستقر فيه فى وقته .

ومن هنا ظهر الغموض والتباين فى اصطلاحات الصوفية ، ولكنهم يعللونه بأن تعبيراتهم وجدانية ذوقية ، ولا يمكن التعبير عنها الا لمن شارك فى وجدانها وذوقها . وهذا ما دعا ابن خلدون الى القول بأن التصوف ليس بعلم يمكن التعبير عنه (اذ العلم الذى يعبر عنه انما هو العلوم الاصطلاحية الكسبية ، وأما الوجدانية فلا[٢٥] .

فاذا انتقينا بعض أقوال الصوفية أنفسهم بايجاز شديد ، فاننا سنعثر على عدة عبارات ، بعضها صريح المعنى والبعض الآخر مبهم غامض ، يحتاج الى تأويل وتفسير .

وقد أورد ابن خلدون بعض تعريفات الصوفية بعد أن نوه بأن كثيرا من القوم حاولوا العبارة عن معنى التصوف بلفظ جامع يعطى شرح معناه فلم يف بذلك قول من أقوالهم ، اذ قال أحدهم معبرا بأحوال البداية (التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من خلق دنى) . وعبر الجنيد(٢٠٠هـ) بأحوال النهاية بقوله (هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به). وقال البغدادى معبرا عن التصوف بعلامة :

علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العز ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الكاذب العكس) .

أما تعريفه بأصوله ومبانيه ، فربما جاء قول رويم معبرا عن ذلك فى

---

(٢٥) ابن خلدون : شفاء السائل ص ٩٧ .
(٢٦) ابن خلدون : شفاء السائل ص ٤٩

تعريفه للتصوف بأنه (مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار ، وترك التعرض والاختيار) .

من هذه العبارة وغيرها تتضح أن كل واحد منهم يعبر عما وجد ، وينطبق بحسب مقامه[٢٦] .

وعلى أية حال فان الصوفية لم يتفقوا على حد واحد يغنى عما عداه ويصبح حدا جامعا مانعا ، وبصفة عامة فانهم تارة يشيرون اليه بالمجاهدة التى تهدف الى الاستقامة طلبا للسعادة فى الآخرة من غير طلب أو تعرض لكشف الحجاب فى الحياة الدنيا ، وتارة أخرى يصبح الباعث فيه هو كشف الحجاب فى الحياة الدنيا ، ولهذا فقد اختلف الطريقان وعسر اندماجهما ومع هذا فالكل ــ كما يرى ابن خلدون ــ تصوف !![٢٧] .

أدوار التصوف ومراحله :

تعتمد أغلب الدراسات التى أجريت للتصوف على تقسيم تاريخه الى أدوار ومراحل مع محاولة استخلاص مظاهره فى العصور المتعاقبة وأخلاقياتهم فى كل مرحلة من هذه المراحل .

وتبدأ عادة بالاتفاق على أن بذور التصوف بدأ اسلاميا ، متخذا الاساس الاول من سلوك الرسول ﷺ وبعض الصحابة الذين أخذوا على أنفسهم بالعبادة والزهد والتقشف ، ومجاهدة النفس ، أى انهم وضعوا البذور الاولى التى انبثقت منها روحة الحياة الروحية ، ثم نمت وآتت أكلها فى حياة التابعين ومن تلاهم[٢٨] .

ثم جاء بعدهم الصوفية من أهل المجاهدات وأصحاب الكشف

---

(٢٧) المصدر السابق .

(٢٨) د. محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الاسلام ص ١٠ــ١١

والعرفان ، فأضافوا على ما تلقوه من البذور الاولى عناصر غريبة عن الاسلام ، بعضها فارسي أو هندي أو يوناني أو مسيحي (حتى بدا التصوف وبدت معه الحياه الروحية ـ لكثرة ما اختلط بهما من هذه العناصر الغريبة ـ كأنها مذهبان مخالفان لتعاليم الاسلام ، بعيدان عن أن يرد أحدهما أو كلاهما الى مصادر اسلامية)[٢٩] .

وذهب ابن الجوزى الى أن التصوف بدأ أولا فى شكل زهد وعبادة ، وكان عند الصدر الاول منهم فى شكل مجاهدة النفس للاستقامة ، تقويما لها وحملها على الصراط المستقيم حتى يصير تهذيبها خلقا جبلية[٣٠] .

ثم ظهر أقوام من الصوفية تكلموا فى الجوع والفقر والوساوس والخطرات مثل الحارث المحاسبى . وأضيف الى مذاهبهم صفات تميزوا بها وأفعال اختصوا بها كلبس المرقعات والحرص على السماع والرقص والتصفيق لزيادة الوجد[٣١] .

وفى القرنين الرابع والخامس ، ظهرت مجاهدة الكشف والاطلاع ، وهى محاولة اخماد القوى البشرية للتوجه بالكلية الى مطالعة الحضرة الربانية ، اذ يطلب الصوفى رفع الحجاب ومشاهدة أنوار الربوبية فى حياته الدنيا[٣٢] .

وربما كانت هذه التقسيمات المتتابعة مستندة الى ما فعله ابن سينا من تقسيم مراحل الطريق الصوفى الى الزهد ثم العبادة ثم المعرفة[٣٣] .

---

(٢٩) نفس المصدر ص ١١
(٣٠) ابن الجوزى ـ تلبيس ابليس ص ١٥٨
(٣١) ن٠م٠
(٣٢) ابن خلدون ـ شفاء السائل ص ٤٧
(٣٣) د٠ محمود قاسم ـ دراسات ص ١٩٠ ط ١٩٧٣ .

ونستطيع العثـــور على ما يؤيد هـــذا الرأى بالنـــص الوارد بكتاب (الاشارات والتنبيهات) الذى يقول فيه :

(المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد ، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحـــوهما يخص باسم العـــابد ، والمنصرف بفكره الى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحـــق فى سره يخص باسم العارف)[٣٤] .

ولكننا نرى أن هذا التعليل ان صح بالنظر للتصوف ــ فى تطوره ــ فلا يصلح لدراسة الحياة الاخلاقية التى التزم بها علماء السلف وتمخضت عن اجتهادات ملتزمة بالكتاب والسنة .

ولبيان ذلك ، سنعرض لنبذة عن نشأة الزهـــد والتصـــوف فى كـــلا الجانبين :

عوامل نشأة الزهد والتصوف :

فى بحثنا عن عوامل ومصادر التصوف فاننا أمام اتجاهين :

الاول : التجاه التطورى ــ ان صح التعبير ــ الذى يفصل بين الزهد والتصوف ، ويرى أن الزهد بدأ ساذجا بسيطا ثم تطور الى التصوف .

وينظر أصحاب هذا الاتجاه الى التصوف كوليد لتاريـــخ الاســـلام الدينى والسياسى والعقلى والعنصرى ، وانه ليس وليد الاسلام وحـــده ، ويقتضى البحث بهذا النظر فى عوامل نشأة التصوف وتطـــوره من داخـــل دائرة التصوف .

---

(٣٤) ابن سينا ــ الاشارات والتنبيهات ص ٥٧ــ٥٨ القسم الرابع دار المعارف سنة ١٩٦٨ .

وكان على الباحثين السالكين هذا السبيل الفصل بين دائرتى الزهد فى بداية ظهوره ثم التصوف ، واستدلوا على عوامل ظهور الزهد بأنها ترجع الى تعاليم الاسلام الواردة بالكتاب والسنة ، ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعى وسياسى قائم ، والرهبنة المسيحية ، والثورة ضد الفقه والكلام[٣٥] .

أما عن عوامل ظهور التصوف كمرحلة تالية للزهد فترجع — فى رأى نيكلسون — للعوامل الآتية :

أولا — البحوث النظرية فى معنى التوحيد الاسلامى .
ثانيا — التصوف والزهد المسيحيان .
ثالثا — مذهب الغنوصية .
رابعا — الفلسفة اليونانية والهندية[٣٦] .

ونجد هنا الفصل بين مرحلة الزهد ومرحلة التصوف ، واذا كان يصح على الصوفية بعامة ، فانه لا يصح على زهاد السلف من علماء الحديث والفقه .

الثانى : الموقف الذى يتخذ من الاسلام أصلا وميزانا، فيميز — بمنهج مقارن — بين ما يتفق مع الشرع وما لا يتفق مع الشرع ، مع النظر أيضا الى اكتمال الدائرة الاسلامية واحتوائها النظر العقلى والعمل القلبى الارادى معا ، فقد انقسم علماء الكلام والصوفية ، فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر فى العلم ودليله ، والصوفية يعظمون الارادة والمريد ، ولابد للجمع بينهما لأهل الصرط المستقيم ، ولابد أن يكون موافقا لما جاء به الرسول ﷺ [٣٧] .

---

(٣٥) د. عفيفى — التصوف — الثورة الروحية فى الاسلام ص ٦٥
(٣٦) نيكلسون — التصوف ص ٧٢ والمصدر السابق ص ٧٥
(٣٧) ابن تيمية — رسالة الفرقان بين الحق والباطل ص ٧١ .

من أجل هذا ينبغى التمييز بين الزهد بالمفهوم الاسلامى وبين التصوف ،فقد اتصلت نشأة الاول بعوامل بحتة من الكتاب والسنة ، وهو عملٌ من أعمال القلوب ويعبر عن الحياة الاخلاقية لدى المسلمين بالنظر الى مكانة الانسان فى هذا الكون وغاياته وأهدافه وقواعد السلوك التى ينبغى اتباعها بالائتمار بما أمر الله سبحانه وتعالى والانتهاء عما نهى عنه .

ويمكن التوصل الى نتائج أكثر دقة اذا نظرنا الى التصوف بمنهج مقارن اذ فرق أصحاب هذا المنهج بين طريقة السنة والاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وهى الطريقة الصحيحة التى يصفها ابن تيمية بأنها أفضل الطرق وهى (الطريقة النبوية السلفية المحمدية الشرعية)، وبين الطريقة الثانية المشوبة بالبدع والعناصر الغريبة عن الاسلام . انه يفصل فصلا تاما بين زهاد وصوفية أهل السنة ، وبين من يخرجهم من دائرة التصوف المشرع وهم عنده (صوفية الملاحدة أمثال ابن عربى والحلبى المقتول والتلمسانى وغيرهم)[٣٨] .

واستخدم ابن خلدون أيضا نفس هذا المنهج ، اذ حصر طريق الصوفية فى طريقين ، أولهما طريق السنة والاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين طريق قوم من المتأخرين نبذوا السنة واستبدلوا البدعة ودان بنحلتهم ، ولهم تواليف كثيرة مشحونة بصريح الكفر ومستبحين البدع وتأويل الظواهر لذلك على أبعد الوجود وأقبحها بما يستغرب الناظر فيها من نسبتها الى الملة أو عدها فى الشريعة[٣٩] .

وقد حذر من الخوض فى علم المكاشفة لأن المدارك والمعانى المنكشفة من عالم الملكوت متعذرة الا للانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الذين

---

(٣٨) ابن تيمية ــ موافقة صحيح المعقول وصريح المنقول ص ٩١ .
(٣٩، ٤٠) ابن خلدون ــ شفاء السائل لتهذيب المسائل ص ١١، ٥٥، ٦١

تفردوا بالمكاشفة أو الوحى • ويشتد نقده لأصحاب مذهب وحدة الوجود فى التصوف فهو رأى أغرب من الاول فى مفهومه ونعقله ، ويرى أن مؤلفاتهم مشحونة بصحيح الكفر ومستهجن البدع وتأويل الظـواهر حتى يجعـل الناظر فيها يستبعد نسبتها الى الملة أو عدها فى الشريعة(٤٠) •

وكنا قد ألمحنا الى عدم دقة الرأى القائل بتقسيم الحياة الروحية الى مرحلتين : الزهد ثم التصوف لأنه لا يفسر لنا ما نلاحظه من واقـع كتب التراجم التى تصف شيوخ السلف بالزهد • فان ابن كثير مثلا يصف ابن الصلاح (٦٤٣هـ) عالم الحديث المشهور بأنه كان زاهدا وربما ناسكا على طريق السلف الصالح كما هو طريقة متأخرى أكثر المحدثين وأنه لمن المعقول أن يتصور فهم الاوائل للاسلام كبناء كامل ثم نقسم المسلمون الى مذاهب وفرق وربما كان أبرزها أحدهما تيار الزهـد الذى ظـل شـيوخ السلف يتمسكون به وهو يعبر عن الجانب الوجدانى والاخلاقى للاسلام •

أما الثانى ــ المعبر عنه التصوف فقد تضخم بالمؤثرات الاجنبية بحيث تراوح طغيانها على الجوهر الاسلامى فيه قوة وضعفا فأدى فى حالة قوته الى ما يسمى بالتصوف الفلسفى وفى حالة ضعفه الى ظهور البدع واختلاطها بالاصول الاسلامية وامتزاجها بها •

الاسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق فى الامة، كما يصفهم ابن تيمية ، حيث وضع أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فى مقـدمة أولياء الله ، ثم أورد أسماء من تلاهم كابن ذر الغفارى وأبى الدرداء •

وجاء التابعون بعدهم أمثال سعيد بن المسيب والحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز والاوزاعى وابراهيم بن أدهم وسفيان الثـورى وغيرهم على نفس المنهج والطريقة ممن لا يحصى كثرة من علماء المسـلمين الذين جمعوا بين الزهد والفقه وعلوم الحديث ، اذ تتداخل هذه الدوائر فى ألوان

معارفهم المتعددة فلا يستطيع الباحث التفرقة بينها ، لأنهـا متفرعـة من الدائرة الكبرى : دائرة الاسلام العظيم .

واقتصرنا فى دراستنا على بحث معنى الزهد من واقع النظر فى حياة بعض الاوائل بادئين بنماذج من شخصيات الصـحابة ثم التقـدم مـع العصور بعدهم بالترتيب لاستطلاع حياة شيوخ المسلمين الذين عـرفوا بحياه الزهد بالمفهوم الاسلامى الصحيح[٤١] .

اذا خطونا خطوة أخرى سيتضح لنا كيف كان منهج علماء السـلف أصح وأدق فى طرقه ومسالكه من غيرهم .

وفيما يلى كلمة عن هذه المناهج :

مناهج البحث فى التصوف :

يلحظ الباحث اجماع السلفيين فى العصر الحديث على انكار التصوف ورميه بالبدع والانحراف عن عقيدة التوحيد الصحيحة ، بينما كان لعلماء السلف فى المـاضى موقفا مغايرا .

فمـا العـلة ؟

ان ممـا يساعد على الاجابة على هذا السؤال ، الاحاطـة بمناهـج البحث فى التصوف على وجه الاجمال لنصل الى التعليل الصـحيح ، وفى ضوئه سنقارن أيضا بين منهج السلفيين المعاصرين الناقدين للتصوف وبين غـيرهم .

وللقارىء بيان أهم هذه المناهج :

أولا : الامام الغـزالى :

اذا اتخذنا الغزالى نموذجا معبرا عن الصوفى فى دائرة أصـل السنة

---

(٤١) ينظر كتابنا : الزهاد الاوائل ـ نشر دار الدعوة بالاسكندرية .

والجماعة فسنجد انه أحدث باختياره منهج الصوفية أثرا هائلا فى أجيال المسلمين حتى العصر الحديث ومن ثم أصبح التصوف يشكل طريقة المتدين لدى أغلب المسلمين الذين ظلوا ــ وحتى الوقت الحاضر ــ يتخذون من كتابه (احياء علوم الدين) سندا قويا لهم ، قراءة واتباعا • وبصرف النظر عن استشهاده بأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة ، فان الكتاب فى اجماله معبر عن بداية وعى الغزالى الى منهج المحدثين ، اذ بالمقارنة ببـاقى كتبه فقد تضمن أكبر عدد من الاحاديث النبوية اذا قورن بغيره من مـؤلفاته • ولكن ، لم يتنبه الى ذلك الا فى نهاية حياته ، ومات على خير أحواله ، مات على الصحيحين صحيح البخارى وصحيح مسلم[٤٢] •

وهنا دليل على احساسه بقصور المنهج الصوفى •

ولعل أول ما يقابلنا من نقـد منهجى لكتاب الاحياء ، هـو نقـد ابن الجوزى الذى ألف (منهاج القاصدين) ، محافظا على نفس الموضـوعات التى عالجها الغزالى[٤٣] ، وذلك بعد أن جمع فى مؤلفه (تلبيس ابليس) كل ما أثير حول نظريات الغزالى الصوفية •

ولم يفعل ابن تيمية أكثر من هذا ، اذ ربمـا يمكن تبرير حـديثه عن الاحوال والمقامات واشتراكه مع الصـوفية فى مواجيـدهم ، أنه كان يود كتابة ما يشبه الاحياء • لقد استخلص هو أيضا بنفسه الآراء ــ بعد رجوعه الى الوثائق والاسـانيد التاريخية العـديدة التى تتحـدث عن الزهـد والتصوف ــ واتخذ منها مصادرا لدراسته ، فضـلا عن تعمقه فى عـلوم التفسير والفقه والحديث وغيرها من علوم عصره •

---

(٤٢) ينظر كتابنا ــ ابن تيمية والتصوف ص ٣١٧ •

(٤٣) ينظر مختصر منهاج القاصدين لاحمد بن محمد بن عبـد الرحمن بن قدامه المقدسى (٧٤٢هـ) ط المكتب الاسلامى بدمشق ١٣٨١هـ ، وهو مختصر كتاب (منهاج القاصدين ومفيد الصادقين) لابن الجوزى •

ويذهب فى تأييده أحيانا للغزالى الى مقارنة طريق الصوفية بمبدأ دعوة الرسول ﷺ ، لانهم (يطهرون قلوبهم مما سوى الله بملئه بذكر الله)[٤٤] ، ولكن ما يعيب طريق أغلب الصوفية فى رأيه أنه ليس عندهم آثار نبوية ، التى تعد بمثابة التفصيل لما عندهم من ايمان مجمل ، ولهذا فان المعرفة عند صاحب الآثار النبوية ــ أى المحدث ــ تتسم بالتفصيل ، لأنه يجمع بين المنهجين كما أن خلاصة موقفه من كل من التصوف وعلم الكلام، يتضح من نظريته عن احتواء الاسلام على النظر العقلى والتذوق الوجدانى معا ، حيث يرى ضرورة ارتباط العلم بالعمل .

وتابعه تلاميذه ــ كما سيلحظ القارىء فى هذا الكتاب ــ ، وأبرزهم ابن القيم الذى اجتذبته مشكلة الانسان المخلوق من الجسد والروح ، حيث تشتمل الطبيعة البشرية على الخير والشر ، واندفع فى كتاباته ليقوى الجانب الروحى فى الاسلام ، فيتحدث عن أصل خلق الانسان ، والجنة التى كانت موطنه ، ثم المعارك الطاحنة الدائرة مع ابليس ، والتى لا انتصار فيها الا بالاستعانة بالجيوش الاسلامية ، ان امراءه هم شعب الايمان المتعلقة بالجوارح ، أى العبادات وشعبه الباطنة المتعلقة بالقلب . واذا انتصر الانسان فى هذه المعارك ، استطاع أن ينفك من أسره فى الدنيا ، ويعود الى وطنه الاصلى ، وهو الجنة . وقد اتخذ ابن القيم موقفا مشابها لشيخه ، لا سيما فى نظرية الحب الالهى ، الذى عد أسمى صورها متحققا فى الجهاد ، لأنه بذل ما فى الوسع فى سبيل ما يرضى الرب .

وحاول ابن مفلح أن يخرج كتابا مشابها لاحياء الغزالى ، مع ارتباطه بعلم مصطلح الحديث . أما ابن رجب ، فقد استمر فى اتجاه الزهد الذى بدأ منذ أصحاب القرون الاولى ، وامتد الى المحدثين ، وظهر بوضوح عند

---

(٤٤) ابن تيمية ــ توحيد الالوهية ص ٢٤

محيى الدين النووى ، الذى كانت تآليفه انعكاسا واضحا لروح المعارضة الشديدة لمنهجى الغزالى وابن عربى أيضا •

وفى انتقالنا للعصر الحديث سنرى كيف علق بالتصوف الكثير من الخرافات التى أدت الى طمس معالم الاسلام ، وترجع الى عوامل التأخر الشاملة للمجتمعات الاسلامية • ان هذه الحقيقة تتكشف اذا ما تابعنا تاريخ المسلمين ، منذ أيام السلف ــ كما فعل الدكتور سارتون العالم الأمريكى ــ وسجل هذه الظاهرة المشاهدة ، مقارنا بينها وبين الاسلام كما درسه فى مصادره ، مؤكدا أن (الاسلام فى شكله الاصلى أمر باهر)[٤٥] •

هنا يمكن وضع يدنا على سر المعارضة • وأيضا فان التصوف بمنهجه الذوقى الجزئى يعجز عن الوقوف فى وجه تحديات هذه الحضارة التى تفخر قادت أمم العصر بأيدولوجياتها وأنظمتها على أساس المنهج العلمى التجريبى •

لذلك فان ما يجمع بين السلفيين المعاصرين هو ضرورة تصحيح المفاهيم الاسلامية واظهار الاسلام فى وحدته الكاملة ــ أى اسلام الصدر الاول ــ القائم على أساس أنه ينبغى النظر اليه فى وحدته وشموله دون تقسيمه الى اسلام الكلام أو الفقه أو التصوف[٤٦] •

وعند تناولنا للتصوف فى العصر الحديث ينبغى الاشارة أيضا الى مناهج المستشرقين الذين خاضوا بأبحاثهم فى هذا الميدان ، اذ لها دلالات هامة تفيدنا فى معرفة نواياهم ومقاصدهم •

---

(٤٥) سارتون ــ الثقافة الغربية فى زعامة الشرق الاوسط ص ٣٢ .
(٤٦) محمد المبارك : الفكر الاسلامى الحديث فى مواجهة الافكار الغربية ص ٦١ .

ثانيا : مناهج المستشرقين فى العصر الحديث :

خاض المستشرقون الميدان أيضا لأغراض ثقافية وسياسية ودينية حيث أخضعوا التصوف لدى المسلمين لمناهج علمية فى البحث وسنعرضها بايجاز لنقف على مراميهم فنحذرهم ونختط لأنفسنا منهجا مغايرا متابعة لعلمائنا الذين أرسوا قواعد المنهج الصحيح فى كل ما يتصل بالاسلام من عقيدة وعبادات وسلوك وأخلاق ونظم وشرائع :

١ ــ المدرسة الانجليزية :

أقامها براون ثم نيلكسون وتلميذه أربرى وقد بحثت فى أصول التصوف عند المسلمين فى ضوء الرهبانية النصرانية ورياضات الهنود ، وانساقت فى تيار القول بأن التصوف تطور الحركة الزهد فى الاسلام(٤٧) .

ان طابع هذه المدرسة هو المنهج الاستقرائى ، مفسرا التصوف الاسلامى على أنه ظاهرة من الظواهر الجزئية لتصوف عام تشترك فيه مختلف الجماعات الانسانية ثم تستخرج الاحكام العامة عن هذا التصوف(٤٨) .

وقد كتب نيلكسون أبحاثا عديدة تتضمن الكثير من الخطأ والتجنى على الاسلام وتاريخه(٤٩) اذ لم يستطع التخلص من الضغن على الاسلام والمسلمين .

وكان براون يدرس نواحى الفكر الاسلامى لا سيما التصوف الفارسى لأغراض استعمارية واستطاع اثارة الحركة البابية وما أعقبها من حركة بهائية التى أثبت البحث العلمى أن مذاهبهما مأخوذة من الكتب الصوفية(٥٠) .

---

(٤٧) د. عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الاسلام .
(٤٨) نشأة الفكر ج ٣ ص ٧
(٤٩) د. النشار ــ نشأة الفكر ج٣ ص١٠٧
(٥٠) نفس المصدر السابق ص ١٠

٢ ــ المدرسة الالمــانية :

وأهم علماؤها جولد تسيهر وفلهوزن وفون هامر وتبحث فى المؤثرات الداخلة فى التصوف بسبب اتصال المسلمين بوثنيات الهنــد وفارس ، ثم باليهود والنصارى .

ومنهجها منهج البحث الفلسفى اذ تعتبر التصوف ظاهرة فلسفية يلجأ فيها الصوفية الى الذوق لتفسير الوجود منشقين على الفلاسفة النظريين الذين يلجأون الى العقل(٥٢) .

وأما آرتمان وأورتين الالمانين فهما يريان أن التأثير الاساسى الذى صبغ التصوف الاسلامى بصبغته هو التصوف الهندى .

فنشر أول دراسته عام ١٩١٦ مبرهنا على أن التأثير الهندى كان فعالا

وكذلك نشر أورتين فى سنة ١٩٢٧ دراسة عن الحلاج والبســطامى والجنيد أثبت فيها أن التأثير الهندى جلى أتم فى مذهب الاول من هــؤلاء الثلاثة (٥٣) .

٣ ــ المدرسة الفرنسية :

ويترعمها ماسينيون الذى فتن بآراء الحلاج وكأنه عثر فيها على ضالته المنشودة لترديد نظريته عن آثار العقيدة المسيحية فى الاسلام ، وأغفل عن عمد آراء كبار الصوفية أنفسهم تجاه الحــلاج وتخطئتهم له ولفظــه من صفوفهم .

وتبنت المدرسة الجهود القائمة على اثبات أن التصوف عند المسلمين

---

(٥١) د. عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الاسلام

(٥٢) د. النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ١ ص ٦٠٣

(٥٣) د. غلاب : التصوف المقارن ص ٤٢

صدر عن التصوف المسيحى ، واستغلت آراءها لتوجيه بعثاتها التبشيرية بهـدف استعمار البلاد الاسلامية[٥٤] .

ويعد منهج المدرسة الفرنسية منهجـا روحيـا غير علمى ، وتنكبت الحقيقة فى مقارناتها لا سيما ما سينيون الذى فى الحـلاج مسيحا آخـر مكملا لعمل المسيح عليه السلام فى بلاد المسلمين[٥٥] .

ونرى المستشرق كاراديفو قد حذا حذو مواطنه ، فقد حاول فى كتابه عن الغزالى اظهار الاثر المسيحى فى تصوفه [٥٦] .

وذهب باحثون آخرون أمثال فـون كريمر وجـولد تسهير ونلدكه وأوليرى الى أن ثمة عناصر روحية أخرى يمكن أن ترد الى أصول نصرانية، ويؤيد هذا الفريق مذهبه بما كان يوجد من صلات بين العرب والنصارى سواء فى الجاهلية أم فى الاسلام ، وبما يلاحظ من أوجه الشبه الكبيرة بين حياة الزهادو الصوفية ولمكانتهم وفنونهم فى الرياضـة والخـلوة والتعبد وبين ما يقابل هذا كله فى حياة المسيح وأقواله .

وأحوال الرهبان والقسيسين وطرقهم فى العبادة واللباس[٥٧] .

٤ ــ المدرسة الاسبانية :

تتبع هذه المدرسة المنهج المقارن وتشبه زميلتها الفرنسية فى محاولة ايجاد أصل مسيحى فى التصوف الاسلامى ، فهى مـدرسة كاثوليكية بحته على رأسها الاب (أسين بلاسيوس) الذى حاول فى أبحـاثه اثبـات أن

---

(٥٤) د. عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الاسلام ــ ج
(٥٥) نشأة ج٣ ص ٨
(٥٦) ينظر كتاب كاراديفو (الغزالى) .
(٥٧) الحياة الروحية فى الاسلام : د. محمد مصطفى حلمى ص ٤٤

التصـــوف الاســـلامى تأثر بالرهبان المســـيحين المنتشرين فى العـــالم الاســـلامى[٥٨] .

الى جانب هذه المدارس ومناهجها فانه يمكن اضافة منهجين آخرين: أحدهما المنهج الاجتماعى الذى يبحث فى التصوف كظاهرة اجتماعية ارتبطت بغيرها من الظواهر الاجتماعية كالعادات والتقاليـــد ، وتتجـــه لدراســـة التصوف فى طقوسه وعاداته ومدارسه ، وتتخذ احـــدى الطـــرق الصوفية لتبحث فى طقوسها وعاداتها وصلة الشيخ بالمريد والمريد بالشيخ الخ ..

أما المنهج الثانى فهو منهج نفسى اذ يبحث التصوف كظاهرة نفسية اذ يعتبر علماء النفس ان التصوف تجربة مرضية تدل على انحراف النفس وخروجها على قوانين النفس السوية ، ويضربون أمثلة على ذلك بحـــالات الشطح والفناء والسكر الصوفى كحالات نفسية شاذة[٥٩] .

وان كان معارضو هذا التصوف (يقرون بوحدة الشبه بين المظاهـــر الخارجية أو بالنواحى الحسية التى يستكشفها العلماء غالبا بين الامراض النفسية ... وقد سجل المعارضون فى هذا الصدد ملاحظات شيقة كملاحظة السيد (دى مونيموران) التى يقول فيها « انه توجد غيبوبة فيزيولوجية ، وأخرى تشنجية وأخرى هستيرية » وأخيرا هناك غيبوبة صوفية يمكن أن يكون لها مظاهر خارجية مشابهة لمظاهر الغيبوبات السالفة ، ولـــكن ليس بينها فى أعماقها أية علاقة مشتركة)[٦٠] .

---

(٥٨) د. النشار : نشأة الفكرة الفلسفى فى الاسلام ج٣ ص ٨ــ٩

(٥٩) نشأة الفكر ج٣ ص ٥ــ٦

(٦٠) د. محمد غلاب : التصوف المقارن ص ١٢٣ــ١٢٤

ثالثا : منهج علماء السلف :

ويمثل جوهر بحثنا بهذا الكتاب :

وسيرى القارىء أن القاعدة المنهجية التى اتبعوها تقتصر على اتخاذ آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ميزانا للتقويم ، واجازة ما يتفق معهما ونبذ ما عدا ذلك .

وهم يعبرون بذلك عن الامتداد الفعلى المشخص لمنهج الاوائل من الصحابة والتابعين والسائرين على دربهم .

وقد انتقينا بعض الشخصيات المشهورة فى حقل الزهد أو التصوف أمثال الهروى الانصارى (٤٨١ هـ) ، وعبد القادر الجيلانى الفقيه الحنبلى (٦٢٠ هـ) .. وبعدهم بعض تلاميذ شيخ الاسلام ابن تيمية .

وسيقف القارىء على تفسيرات رائعة لهم تأخذ بالالباب وتجعله يعيش مع كتاب الله تعالى محلقا فى سماء الايمان ، منبهرا بمعانى محبة الله عز وجل وخشيته والتوكل عليه والانابة اليه ، وغاصا فى أعماق النفس البشرية وخواطرها وارادتها . كل ذلك فى نطاق من المحافظة على التفسير الصحيح للنصوص بغير تأويل متعسف يخرج عن مقصودها وذلك التزاما بالمنهج وقواعده .

واقتضت الامانة العلمية والاخلاص للمنهج أن يتعرض أحدهم للنقد الشديد اذا رؤى أنه (يشطح) أحيانا أو يخل بالمعنى الصحيح . وسيقف القارىء بنفسه على دليل ذلك عندما يطلع على نقد ابن تيمية لشيخ الاسلام الهروى .

ولهذا فلا نستطيع القول بأن للسلف طوال تاريخهم موقفا معارضا على طول الخط ، فان الالتزام بمنهجهم الدقيق هو الذى أخرج لنا هذه

(الروائع) الوجدانية عند أمثال الجيلانى وابن القيم وابن مفلح وغيرهم ، ونفس المنهج الذى التزم به السلفيون المعاصرون هو الذى أدى بهم لنقد التصوف وفقا لمبادىء وأسس سيراهما القارىء بنفسه فى هذا الكتاب •

وبعد فلا يفوتنى الدعاء الى الله تعالى لكل من أسهم فى اخراج هـذا الكتاب وعاون فى تقديمه للقارىء ، جزاهم الله عنى خير الجزاء •

والخير أردت وما توفيقى الا بالله العلى القدير ،،،

الجيزة فى ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٣ هـ

٢ أبريل سنة ١٩٨٣م

مصطفى حلمى